

ملخص البحث :-

في هذا البحث ندرس دور ثقافة المتحضرين سكان المناطق القديمة سابقاً والذين انتقلوا منها لتطوير المدينة كلها بشكل عام وقد قمنا أولاً بتحديد صفات هؤلاء المتحضرين والأعمال التي يمارسونها ودرجات تدخلهم في تطوير مجتمعاتهم . ثم قسمنا المدن العربية حسب الحضارات التي قامت في كل منطقة إلى مجتمعات أندلسية وتشمل دول المغرب العربي والتي وقعت كلها تحت الاحتلال الفرنسي وهي مدن تميزت بالانعزال والفردية في اتخاذ القرار ، ثم مجتمعات عثمانية وتشمل كل المدن التي وقعت تحت حكم الأمانة العثمانية وقد تميزت تلك المدن بتفاعلها مع الحضارات الوافدة وأنتجت نمط حضاري خاص بها ، وأخيراً المجتمعات الخليجية البدوية التي انتقلت بسبب البترول إلى حياة المدن الأمريكية في قلب صحراء الجزيرة العربية وهي مجتمعات استهلاكية لا حضارة لمدها سوى القليل من تلك المدن .

ثم نظرنا إلى دراسة علاقة السكان بالمناطق القديمة داخل مدنهم والتي كانت ولا زالت تمثل مركزاً لتلك المدن وتتبعنا هذه المراكز داخل المجتمعات الأندلسية حيث التردد الواضح في التعاطي مع تلك المراكز أو عزلها في طرف المدينة ثم ضرب الأسوار والأبواب حولها وجعلها متاحف تجارية ، أما في المجتمعات العثمانية فإن تلك المراكز استمرت في التفاعل مع الجديد الوافد وأنتجت من تاريخها القديم والحديث الوافد صفات جديدة ضمنت لها التطور المستمر ، أما في المدن الخليجية فغياب مركز المدينة واستبداله بالمساحات المكيفة داخل المراكز التجارية قطع العلاقة بين سكان تلك المدن وشوارعها حتى لو كانوا يحملون في عروقهم العروبة القديمة فلقد طغت عليها المدينة الأمريكية وحولتهم من بدو صحراويين يسكنون خيام متناثرة إلى بدو يسكنون في بيوت أو قصور لا رابط بينها وبين سكان تلك المدن من المهاجرين

مقدمة البحث :-

فى هذا البحث نحاول الإجابة على تساؤلات توضح العلاقة بين السكان والمدينة فى الدول العربية ومنها مصر ودور المتحضرين منهم فى تطوير مدنهم التى نشأوا فيها هذا بالرغم من الخصوصية التى قد تتفرد بها كل مدينة والمتضادات الفكرية بين سكان تلك المدن والموروث الثقافى الذى وصل بها إلى الشكل أو التكوين الذى وصلت إليه تلك المدن سواء كانت على درجة من التخلف أو التحضر .

مشكلة البحث :-

فى هذا البحث نحاول الإجابة على بعض التساؤلات مثل :-

- ١- ما هو شكل العلاقة بين المناطق القديمة والحديثة داخل المدينة اليوم ؟
 - ٢- هل هناك علاقة بين تطور الثقافات القديمة لسكان المدن والشكل الذى وصلت إليه الآن ؟
 - ٣- أليس من الأجدر تحديد معالم الاستمرار والتوقف ثم تحليل تلك المتعارضات التى ظهرت أثناء انتقال تلك المدن من القديم للحديث ؟
 - ٤- كيف يمكننا تحديد المتغيرات الممكنة بين الاستمرارية الواضحة لحياة تلك المدن والتخطيط الجاد فى التركيبة السكانية ؟
- إن الأنطباع المعروف على أن تطور المدن العربية يجب أن يمر عبر تطور سكانها والمأخوذ من طبيعة خصائصهم هو تصور سليم لذا :-
- ١- يجب تحديد معانى كل من (المدينة الشرقية - المدينة الإسلامية - المدينة العربية) وأن نفرق بينها فى (التخطيط - الآثار - العمارة - التاريخ - العلوم الإنسانية - الجغرافيا) وتوضيح الشكل العام لهذه المعطيات ودور كل منها فى تطوير المدينة .
 - ٢- التركيز على صورة المدينة على شكل علاقات (علاقات اجتماعية - تصرفات فردية أو جماعية - العلاقة مع المدينة من الداخل والخارج)

مع التركيز على تحديد شخصية هذه المدينة من منظور التواصل الثقافي لها .

٣- تحديد دور المركزية في تكوين شخصية سكان تلك المدن مع الإحاطة بمتغيرات العلاقة بين (الفراغ العمراني - الزمن - السلطة الإدارية) والتي يمكن أن توصلنا إلى قلب مشاكل المدينة الحالية .

هدف البحث :-

يهدف البحث إلى الإلمام بمشاكل المدن العربية الآن (تحديث المدن وسكانها - فكرة الحالة الإسكانية التي وصلت لها تلك المدن وهل محتوى السكان يمكن تحليله من منظور تحليل حركة التحضر أو المدنية لإبراز شخصية جديدة لهذه المدن ؟) .

عناصر المشكلة واضحة ولكن هناك صعوبات في تطبيق الحلول سواء من ناحية مجتمع السكان وهل هو معد لكي يتعرف على المدينة من منظور ثقافي عربي ؟ وعندها يكون هناك مشكلة في قبول هذه الاختلافات . لكن لأن أحاسيس تلك المجتمعات مرهفة لذا وجب تحديد مدى صلاحيتها لفهم الانتقال والتحول من شكل المدنية القديم إلى الحديث وهنا تكمن المشكلة .

المشكلة إذا هي تحديد القدرة على استعمال مفردات عصر من العصور من خلال ثقافته التي يقدمها سكان ذلك الزمان والاعتراضات التي كانت تواجههم كاقليات عند محاولتهم تطوير مدنهم هذه المفردات التي واجهت مشاكل في التطبيق من خلال مفكرى تلك المدن الذين أصيبوا بحالة انحسار اجتماعي وسياسي ليس بسبب قنهم العددية ولكن للهجوم الذي يمثله السبوا أصحاب الثقافات غير المتحضرة (الفلاحين والصعيديه) الذين يعيشون داخل تلك المدن وينون نظام يحكمهم .

أن تحضر المدينة ينشأ عن مجموعة من السكان تحمل في جيناتها ثقافة التحضر أو المدنية مثل (الحرفيين - المفاوضين - رجال الدين - رجال العلم والمعرفة) ويكون لهم جذور قديمة تمثل أحياناً معارضة لسلطة الدولة وهو ما أثبتته التاريخ حيث أنها تعتبر المحرك الاساسى لتقدم تلك الأمم. ففي بعض الفترات تظهر تلك القيم ويقبل عليها الناس بل وينشغلون بتطبيقها إن العودة إلى الموروث الثقافى العربى الإسلامى تكون بمثابة العودة إلى الأصالة التى بدأت تتلاشى شيئاً فشيئاً لذا يجب العودة إلى أصولنا التى تعتبر المضاد الحيوى الذى يضغط فى اتجاه التحديث والمدنية وهو ما لم تضح معالمه الجديدة حتى الآن .

آخر هذه المفردات والذى يمثل عامل ضغط كبير هو أن الصفة من سكان تلك المجتمعات تبدو متفتحة على فكرة تعدد الثقافات وتعتمد التحديث أسلوبياً لها. وتأخذ على عاتقها دمج موروث الماضى مع الحاضر لانتاج المستقبل فجنورهم الثقافية لا تسمح لهم بالتبديل فى حين أن هناك طبقات أقل تشبعاً بثقافة تلك المدن يمكن أن تقع فريسة للتشتت ورفض المدينة لأفكارهم.

منهج البحث :-

ويعتمد على دراسة دور سكان المدن (الحضر) كمؤثرين فى تطوير المجتمعاتهم بالدول العربية وسنبدأ بمعرفة مراحل التطور للمناطق القديمة بالمدن وصولاً إلى شكلها فى العصر الحالى بجوار المناطق الحديثة أو داخل حزام المدينة كلها وذلك من خلال الزيادة المطردة للمشاكل الاجتماعية وضغطها المتواصل على المجتمعات المتحضرة .

كما يجب التأكيد هنا على أنه لا يجب إعادة تكرار نمط وأسلوب الحياة المدنية فى القرن الـ ١٩ والقرن العشرين حيث أن تطور مجتمع سكان الحضر فى المدن العربية قد خطا خطوات واسعة فى اتجاه المدنية

والتحضر فى تلك الحقبة الزمنية مما جعله يقبل بالاستمرار أو الانفصال عن الماضى كاسلوب تطوير ثقافى يطمح إلى المدنية الحديثة مع الإمام بالعواقب العمرانية الكبيرة التى تؤثر على تطوير هذه المدن .

وهذا ما جعلنا نؤكد أن العامل الثقافى بالاشتراك مع العوامل السياسية والاقتصادية كانوا جميعهم محددين لمستقبل مجتمعات المدن العربية.

موضوع البحث :-

أولاً : صفات الموجهين لثقافة المدنية العربية :-

يختلف مفهوم التحضر أو المدنية من منطقة لأخرى هذا الاختلاف يكون محدداً باعتماد المدن على المتحضرين فيها للوصول بها الى درجة المدنية ومن خصائص هؤلاء المتحضرين :

قدرتهم على تحقيق مكانة مميزة لهم ولورثتهم واشتراكهم فى صفة أنهم أناس متحضرون يرتبطون بعلاقات نسب فيما بينهم ويظهر ذلك واضحاً فى مجتمع السيدات المدنيات اللاتى يرفضن العلاقات مع الأوساط الأخرى خارج إطار المدينة والتعارف بين هذه الأسر لا يتم فى الوسط العائلى فقط بل يمتد إلى الأوساط المتحضرة الأخرى المماثلة لها بالمدينة سواء كانت علاقات زواج أو صداقة تتسم بالتفاهم فيما بينهم وتختلف مع الآخرين داخل الوسط الحضري لمجتمع المدينة .

صفة التحضر هذه تربط الأبناء بعلاقات حتى وأن كانوا مختلفين لأسباب أخرى كما تظهر هذه الصفة فى الأبناء أكثر منها فى الآباء وتكون أكثر وضوحاً فى المجتمعات التى تحاول أن تصل إلى درجة عالية من الاستقرار الاجتماعى .

إن مناسبات اللقاء الاجتماعي للأسر المتحضرة التي ترتبط بعلاقات نسب مع العائلات الأخرى الأقل تحضراً في المدينة تكون أحد أسباب الإجهاد أو الضغط على هذه الطبقة المتحضرة فالتحضر هو المحدد لذاكرة المدن ، وقد عرف التاريخ العديد من الشخصيات التي ساهمت في تحريك وتطوير حياة المجتمعات المدنية الحالية .

أن أسلوب المتحضرين المتعقل ساعدهم في علاقاتهم مع باقي سكان المدينة باستيعاب الآخرين الذين يتعاملون معهم في حياتهم اليومية سواء كانوا في أملاكهم أو عمال في شركاتهم ومؤسساتهم فشخصية الإنسان المتحضر تعتمد على علاقاته الأسرية الواضحة وموقع سكنه المتميز وكذلك مكان عمله. فعلاقة التجاور (جيران) في نفس المنطقة أو الشارع تؤدي إلى نشوء علاقات وصفات موحدة تقف في وجه عوامل التفكك التي قد تواجهها .

الإنسان المتحضر في وسط علاقاته الاجتماعية لا يستطيع فقط تقييم كل شخص إلا أن لديه أيضاً الحس المرفه لمعرفة تركيبة كل شخص من حيث وضعه الاجتماعي إن كان غنياً أو من طبقة عادية بالمجتمع كما يستطيع أن يميز أن كانت علاقاته الأسرية مترابطة أم مفككة وهل هو منافس أم حليف وهو ما يطلق عليه القدرة على فهم ومعرفة الآخرين .

المتحضر المرتبط بالمجتمع المدني بعلاقات عمل أو علاقات عائلية أو من خلال اشتراكه في الأعمال التي تهتم بشأن المدينة يعتبر متنازلاً عن الكثير من طبيعته أو هيئته أو مستواه المادي كما يبدو كإنسان خيالي لا يستند إلى الواقعية التي وضعته في مكانة معينة .

ويتواجد المتحضرين دائماً في أماكن التسلية العامة سواء لممارسة الرياضة أو تبادل الآراء الاجتماعية كالنوادي في القاهرة مثلاً تعتبر أحد أماكن تجمع هذه الطبقة حيث تكون معزولة عن المجتمع بأسوار وجدران

يقابلها النزهة في دول المغرب العربي والمجلس في دول الخليج وهي أماكن أفراد من نفس المستوى وغالباً ما تكون مرتبطة عائلياً وتخلق بين زوارها منطقة تبادل آراء وحوار ملائم لمستواهم الاجتماعي .

المتحضر لا يحضر علاقته في مجتمع المدينة فقط بل قد يكون له علاقات بسيطة مع الريف على ألا تنتهي هذه العلاقات بالمشاكل في نهاية الأمر . حيث أنه يركز اهتمامه بالمدينة في إقامة الاستثمارات وجمعيات التوفير والنوادي والشركات الكبرى وغيرها . غير أنه غالباً ما يكون متردداً في اشتراكه في الخدمات التي تعتمد على علاقات مع الريف .

المتحضر لديه الاستعداد لقبول العلاقات خارج محيط أسرته أو عائلته بل ومجمعه فلدنيه للقدرة على الارتباط بعلاقات مع أفراد من دول أخرى كالتجارة التي تجرى في عروقه مثلاً كما أن علاقاته وإمامه بأمور التجارة تغذى شخصيته كمتحضر يستطيع عقد لقاءات يثبت من خلالها قدرته على الإدارة وإمامه بأشياء كثيرة وفعل أشياء أكثر . صفات كهذه تظهر قدرته على التفاوض والاحتفاظ بمسافة بينه وبين الآخرين وكسب احترامهم له بل وأحياناً التظاهر والتعالى عليهم . كما أن له أسلوباً خاصاً في طريقة الكلام يظهر به سمو والرفعة مقارنة بالآخرين .

الانغماس المستمر في نفس الوسط الثقافي يخلق من المتحضر متحدثاً جيداً من الدرجة الأولى وذا أصول ضاربة في المدنية . فطريقة نطق بعض الحروف والكلمات يمكن أن توضح لنا إن كان هذا الشخص من الريف أو من المدينة وإذا كان من المدينة يمكن أيضاً تحديد درجة التحضر التي وصل لها . وهنا يكون دور الأم مهم في المحافظة على هذه الطريقة في الكلام المتحضر . كما أن مظهر الشخص من خلال الملابس التي يرتديها توضح أيضاً منبته من عدمها .

النقاط السابقة أوضحت طريقة تعبير المتحضرين عن أنفسهم ودرجة الاحتياج لتلك النماذج الثقافية فى المجتمعات المدنية وعلاقتها بالمدينة إلا أنها لم توضح الطريقة التى تكونت وتأقلمت هذه العناصر بها مع مجتمع المدينة لنحصد فى النهاية هذه الفروق والاختلافات فى تحضر المدن العربية .

ثانياً : أنماط التحضر فى المدن العربية :-

إن اختلاف أنماط التحضر للمدن العربية جعلها تنمو بشكل غير متوازن ، ويأتى هذا الاختلاف من طبيعة الأفراد والجماعات والمدن والمتغيرات المؤثرة فى مجتمعاتها . كما أن الظروف التاريخية لنشأة الدولة وعلاقتها بالمدينة والمد الثقافي الذى يتعارض أحياناً مع الزمن كلما اجتمعت لإقرار أفراد هى المتسببة فى التحضر ، وهى كما نرى ظروف جغرافية متعلقة بالمكان . وقد اجتمعت هذه الظروف وأعطت لنا الصورة التى عليها مجتمع المدينة المتحضر (المبنى) وعلى مر التاريخ كانت هناك مؤثرات سواء هيئات خاصة أو حكومات أثرت فى تطور مجتمع معين .

إن المدنية لا يمكن أن تزدهر إلا فى عهد تسمح فيه السلطة بمساحة واسعة من الحرية فى النمو والتطور أو ما يطلق عليه اليوم المجتمع المبنى . هذه الإرادة للتحضر قد تكون موجودة ولكن تكون من الضعف مالا يجعلها تلم ببواطن الأمور فى المجتمع . كما قد تكون الدولة قوية ولكن ليست القوة الكافية للتحكم فى تطور المجتمع .

شخصية التحضر هذه تبنى غير متوافقة مع مجتمع الدولة ، فإقامة حكومة متشددة تحمل فى طياتها التعالى على المجتمع ستؤدى فى النهاية وحينما الى القضاء على مجتمعات المدينة ثقافياً وسياسياً واقتصادياً . وعلى مر العصور ظهرت نتائج العلاقة بين الدولة والمجتمع المبنى واضحة من

خلال الخطوات الانتقالية للمدن القديمة باتجاه التحديث والمركزية التخطيطية
خير شاهد على ذلك .

إن من الطبيعي أن نرى هذه المدن المختلفة الواسعة الانتشار
والتي تكون قد ظهرت نتيجة لتغيرات تاريخية تبدو متصلة أحيانا وغير
متصلة أحيانا أخرى . لذا فإنه من المهم رؤية المدينة من خلال منظور
تاريخي اجتماعي حضري لأنها من الممكن أن تضيع مثلها مثل التطور
وكلاهما يمكن حدوثهما بسرعة أو ببطء وذلك يتوقف على دور الدولة في
ذلك . فالمدينة في صنعاء والقاهرة وفاس تبدو متشابهة في ردود أفعالها عند
الدخول في صراعات مع نماذج أخرى مختلفة حضريا (أى تلفظ المدينة أى
شيء لا يتناسب مع طبيعتها) وهذا يرجع بالطبع الى الأصالة التي تميز هذه
المدن .

إن الخصوصية التاريخية والمكانية أعطت صفات محددة لشكل
التحضر في بعض المدن العربية فالمسافات الجغرافية التي تفصل بين دول
المغرب العربي والشرق الأوسط والخليج جعلت لكل منها خصائصها
وأسلوبها في التطور الحضري . كما أن الأسس التاريخية والثقافية لتلك
الدول (كل مجموعة على حدة) يجب أن تأخذ مكانها عند تحديد التوجهات
المستقبلية لتطوير المدن العربية وتأثير ذلك على مناطقها التاريخية القديمة أو
الحديثة نتيجة التفاعل مع المتغيرات الحديثة كأمرو واقع في القرن الواحد
والعشرين . وهو ما أكدته المناطق القديمة في رفضها للتعاظم مع وسائل
التحديث خارج بواباتها (فاس - تونس -) .

المدن الأندلسية مجتمعات متفردة في التحضر :

وتشمل دول المغرب العربي الثلاث ذات الثقافات الأندلسية القديمة
حيث أنهم مشتركون في اللغة والأصول القديمة التي استوطنت دول المغرب

العربي . إلا أن هذه الجماعات لم تكن متناسقة في اختيارها لمواقع المدن التي استقروا بها في دول المغرب العربي وإنما حدث تركيز في بعضها وتركت بقية أرض الدولة للبدو سكان الصحراء . وقد اختلفت درجات التحضر من مدينة لأخرى لأسباب تاريخية - إنسانية - ثقافية - سياسية .

فمدينة تونس ذات التاريخ العريق في التحضر الذي كان سببا لهجرة العديد من سكان الدولة التونسية الى المدينة وعودتهم مرة أخرى الى قراهم محميين بأفكار المدنية مما أدى الى نشر التحضر في معظم المدن الريفية التونسية .

أما في مدينة فاس المغربية فقد كان تأثيرها على المناطق المحيطة بها في شمال المغرب كبيرا حيث أن هذه الجماعات المهاجرة التي استوطنت المدينة كان لديها الاستعداد لتقبل حياة المدنية في فاس والذي كان مخالفاً لأسلوب حياتهم في قراهم التي وفدوا منها وبذلك حدث لهم اندماج سريع في مجتمع المدينة وتشبعهم بثقافة التحضر .

أما في مدينة تلمسان الجزائرية فقد وقعت هي وبعض المناطق المحيطة تحت الاحتلال التركي مما أدى الى تدهور المدنية هناك إلا أنها لم تنعزل عن أصولها الأندلسية ومحاولاتها في نشر تلك المدنية الضعيفة في المناطق المحيطة بها .

أما في مدينة مراكش المغربية صاحبة التاريخ القديم (القرن السابع الميلادي) فقد ظلت مدينة بادية رافضة لكل عوامل التحضر والمدنية وهنا يتضح أن طول مدة التحضر لا تضمن الوصول الى المدنية في النهاية . أما مدن الرباط - فاس - تطوان فهي لا تحمل جينات التحضر منذ إنشائها إلا أنها وصلت في النهاية الى صورة المدنية الحالية . ويرجع سبب تراجع المدنية في مراكش الى أن أصول العائلة الملكية في المغرب هي من هذه

المدينة وحيث أن هذه العائلة تميزت بالتشدد الديني والزهة في التحضر وقد ظهر ذلك واضحاً في طريقة معيشتهم وبيوتهم التي سكنوها حيث أنه لا توجد معارضة تنادى بالمدينة وتتازع هذه العائلة على السلطة كل ذلك أدى إلى ثبات حالة المدينة الثقافي كمدينة بدوية .

لكن المعارضة في فاس لها جذور عميقة وأسلوبهم كان يعتمد باستمرار على تهيئة الظروف لتحضر المدينة . لذا يمكننا القول أن صورة التحضر التي عليها بعض المدن المغربية جاءت في ظروف ضعف العائلة المالكة في الإلمام بزمام الأمور هناك وهو ما جاء بحدود فعل عكسية على تلك المدن .

إن المدن الأندلسية لها قدرة كبيرة على الاندماج وذلك يرجع إلى أسباب خاصة بمنطقة المغرب العربي مثل انتشار التجانس الديني أي أنها شعوب متدينة وقد استمر ذلك حتى بدء الاحتلال الأجنبي لدول المغرب العربي . هذه الشعوب المتدينة ساهمت في خلق مجتمعات هادئة في التعبير الحضري مثل اشتراك أكثر من أسرة لنفس العائلة في الحياة بنفس المنزل ومواجهة نفس المشاكل معاً

وهنا يمكننا القول أن دخول ثقافة الاحتلال على ثقافة تلك المدن تسبب في إفساد هذه المدن تاريخياً وغذى روح الانعزال والتفكك الاجتماعي (التطرف الحادث الآن في المدن الجزائرية وعمليات القتل الجماعي نتيجة الفكر المنعزل المتطرف) ولكي تعود هذه المدن يجب أن ينهض متحضرها للارتقاء بسكانها وتنظيم المدنية ونشر أسلوب الرقي الاجتماعي .

هذه الخصائص المشتركة لأسلوب التحضر الأندلسي وجبت معارضة من أسلوب التحضر الاحتلالي . وصار أسلوب تطوير هذه المدن

يعتمد إما على إحلال الجديد محل القديم أو ضرب سور حول القديم ومنعة من الاحتكاك مع الخارجي ذو النمط الاحتلالي .

وما بين هذين النموذجين توجد قطيعة ثقافية . وقد حدثت تدخلات على الأنسجة الاجتماعية والتخطيطية للمناطق القديمة أدت الى تدهور بعضها في فترات الاحتلال . وقد استمر الحال هكذا حتى ظهر أسلوب التخطيط الحالي الذي يربط القديم بالحديث ذو التحولات السريعة .

إلا أن الاحتكاك بين المدن القديمة وأسلوب التحضر الاحتلالي أفرز صفة من المتميزين في مجال المعاملات اليومية والثقافية وكذلك في السلطة الحاكمة للبلاد وبدأت تخف لديهم حدة الانبهار من الأفكار الاحتلالية الجديدة وقد ظهر ذلك واضحا في مدينة الدار البيضاء (كازيلانكا) حيث المدينة القديمة يحيط بها سور وبوابات تفتح على امتداد شوارع المدينة الحديثة .

المدن العثمانية مجتمعات متعاونة في التحضر :

وهي تضم مجتمعات الشرق الأوسط من حلب حتى عدن ومن مسقط حتى القاهرة وهي تتميز بالأصالة أكثر من دول المغرب العربي حيث تتوفر التعددية الثقافية على نطاق واسع في تلك المدن وارتباطها فيما بينها بعلاقات تغلغت في قلب الحضارة العثمانية .

هيكل التحضر لسلك المدن لم يعتمد فقط على الجذور الثقافية لمجتمعها بل حدث تناثر في بادئ الأمر بينها وبين الحضارة العثمانية الى أن وصلت الى حالة الاستقرار الاجتماعي وقد ظهر ذلك على هيئة مجتمعات تتبنى للفكر الحديث وأخرى ترفضه نتيجة العمق الثقافي لتلك المدن المعتمد على الدين - الاقتصاد - السياسة - المجتمع .

وتأتى أهمية التبادل الثقافى فى وسط المدينة من كونها منطقة حيوية أكثر من المناطق الحرفية المتخصصة والتي تعتبر عامل مكمّل لأبد منه . كما أن اعتماد كل منطقة على الأخرى فى إنتاج ما تحتاجه يؤكد على طبيعة عمل المنطقة مثل النحاسين - الخيامية - الصاغة

لذا فقد كانت التجارة ضرورة للتحضر فى بادئ الأمر فى بلاد اليمن وحلت محل الدين كعقيدة تساهم فى المدنية . فتقسيم المجتمع الحضري الى مناطق وأحياء قابلة لشبكة العلاقات بين القبائل والعشائر باليمن . كما أن تجزئة المجتمع المدني فى صنعا مثلما تعتمد على قاعدة من التكامل القبلى وإن كانت كل منطقة مستقلة عن الأخرى . فالجمع هنا بين فكر القبائل والعشائر وفكر المدنية كان مسببا لتحضر تلك المدينة .

إلا أننا لا يمكن أن نطلق على مدينة صنعا أنها مدينة حضرية كاملة للتحضر فهى كما نقول باللهجة العامية (بنت سوق) حيث تجعل السوق مكان واضح بالمدينة فى حين يطلق على نفس المدن فى دول المغرب (بنت ناس) وهو أسلوب تعريف يدل على مدى تحضر المدينة كما يطلقون عليها فى مصر مثلاً (بنت بلد) .

منطقة وسط المدينة العثمانية لا تعتبر هى الفراغ الاستراتيجى الذى يستوجب المرور به عند عبور المدينة لكن هى المكان الذى يشهد درجة تحضر عالية فهو إن كان محددًا فى امتداده إلا أنه يشهد درجة تركيز عالية فى العناصر الثقافية والتجارية والاجتماعية هذا بخلاف الحوارات والنقاشات التى تدور به .

ففى هذه الأماكن نرى المدنية الحقيقية والانفتاح على العالم بالتفرد فوق حدود الدولة والعبور الى المجتمعات العالمية الأخرى .

فأعمال التجارة تجذب المدنيين الى هذه الأماكن مثل أغنياء البلد الذين يتركزون هناك مكونين فيما بينهم شبكة علاقات غير مرئية للأخريين ففى المدينة نفسها والمدن الأخرى لذا يعتبر مركز المدينة بالنسبة لهم أحد وسائل مواجهة الصعاب من خلال طبيعة عملهم اليومى .

إن مركزية التحضر كانت هى خلاصة المدنية العثمانية ، فالحرب الطائفية فى لبنان فى السبعينيات هدمت كل عوامل التحضر لمدينة بيروت القديمة حيث كان يتوجب المرور الضرورى بها . أما فى دول المغرب العربى فانغلاق المدينة القديمة على نفسها بأسوار فى طرف المدينة غذ روح التطرف بها وأدى الى تكوين جماعات القتل المسلح نفذت أعمالها فى نواحي أخرى بعيدة عن المنطقة القديمة .

إن العلاقة المكانية بين الجماعات المتحضرة لها أهمية كبرى فى المدن العثمانية حيث أن هذه الجماعات حددت لنفسها الوضع السياسى والقانونى فى وسط المدينة وهو ما يختلف مع المجتمع المغاربى الذى يعتمد على مكانة الفرد لا على تبعيته لمجموعة معينة حيث أنه لمجرد السكن بالمدينة والاندماج بها يعد إنسانا متحضراً فمكان مسكنه دليل تحضره .

أما المدينة العثمانية فالمكان يعتبر عامل أساسى فى تكوين الجماعة وقد ظهر ذلك واضحاً فى حرب بيروت حيث أن الحرب بها كانت لها أبعاد إقليمية بعيدة عن مواقع القتال (حزب الله يتبع سوريا - الكتائب تتبع اسرائيل) وهو ما يبرهن أن الجماعات المتناحرة كانت لها علاقات دولية تؤثر على سير الحرب داخل بيروت . وحيث أن الأفراد محكومة بقوانين الجماعة وموقفها القانونى سياسيا واجتماعيا وإقليميا كما أن هذه الجماعات هى المتحكمة فى تقسيم السلطة ومرورها عبر الأفراد يعتبر أمراً محدوداً فهم

لا يستطيعون الحصول على الوظائف أو الطلبات الخاصة لمجرد تألقهم الاجتماعي وإنما لانتمائهم الطائفي .

إن التحضر يجلب دائما الكفاءة الاجتماعية والسياسية وأن التبادل الفكري بين الجماعات في الثقافة والتجارة والاجتماع والمجالات الإنسانية يفتح المجال للطموحين في الانتقال من جماعة الى أخرى مما يغذي روح المدنية والتحضر .

علاقة المتحضرين بالدولة تميزت لفترة طويلة بالإسكاف بزمام الأمور السياسية والاقتصادية وعدم السماح للأخرين بدخول المجال التجاري . إلا أنه عند نشأة الإمارة العثمانية احتكرت السياسة لنفسها حيث تدار من الأستانة وتركت مجال الشركات والتجارة للمتحضرين في المجتمع بعيدا عن الصراعات السياسية . هذا النمط من العلاقات ظهر واضحا في لبنان حيث دور الدولة الطاعى سياسيا واقتصاديا وبدون ذلك لما تحققت عملية اعمار بيروت حتى الآن .

هذه المسافة بين الدولة والمجتمع تبدو واضحة اليوم فى مدينة صنعاء حيث خلق المتحضرين لأنفسهم هيئات عقائدية متماشية مع الإدارات المحلية وقد أخذت هذه الهيئات شكل قانونى مثل (حق الموروث المدنى) وهو ما يؤكد على قدرة المجتمع المدنى على دفع الأمور لصالحه مما ساعد على تطوير العلاقة بين الدولة وسكان المدن .

فعملية إعادة بناء المناطق القديمة فى بعض المدن المغربية والتي كانت وظيفة المحتسب قديما تحتاج الآن الى التعامل الحذر مع بعض القوانين الجديدة . فالحسبة التي كان يتعامل بها سكان هذه المدن قديما لم تعد تستخدم كأداة حضرية الآن . كما ان الحكومات الجديدة لا تسمح باستخدامها فى إدارة

الأمور اليومية هناك وصارت العلاقة بين المدنية والدولة دفيئة جو من التعتيم هناك .

المدن الخليجية مجتمعات استهلاكية التحضر (مبكرة) :

إذا كانت المجتمعات الأندلسية تميزت بالانعزال والمجتمعات العثمانية تميزت بالعلاقات الاجتماعية فإن المجتمعات الخليجية والتي تخص دول الخليج العربي أخذت شكل الارتباط بين المدنية والمجتمع البدوي وهو أسلوب مختلف في الاندماج مع المدينة . فالمجتمعات الأندلسية مرت بمراحل ثقافية عديدة قبل اندماج أفرادها مع المدينة وكذا الحال في المدن العثمانية . أما بالنسبة للمجتمعات البدوية فقد خرجت عن المألوف لحياتها واتجهت للمجال الدنيوي المتحضر في بقعة يعتبر نمو المدينة فيها عقبة واضحة في طريق التنمية والتطور .

لقد ظهرت المجتمعات الخليجية الحديثة بصورة ممسوخة للمدنية الفجة المستوردة من أمريكا وإنجلترا وظهر واضحا الاختلاف بين قيم وعادات وتقاليد تلك المجتمعات وهذه الأعمال المعمارية (ما بعد الحداثة) التي لا ترتبط مع تلك المجتمعات مما تسبب في ظهور بعض المتعارضات مثل :

أصول السكان والمدن

ففي أوائل القرن الماضي ظهرت هذه الكيانات كهيئات في طور التكوين ضعيفة أخذت بعد ذلك شكل المحليات التي اهتمت بالأمور التجارية والاجتماعية لسكان تلك التجمعات . إلا أن شكل الدولة الحقيقي لم يظهر بعد . فنمو هذه المجتمعات كان ينقصه الاحتكاك كما أنها احتاجت الى وقت طويل كي تصل الى درجة من الترابط تتكون على أساسها المجتمعات

الحضرية . إلا أن هذه التجمعات كان لها عمق تاريخي سمح بتكوين نماذج ثقافية وعلاقات اجتماعية اعتبرت نواة لتكوين حضارات مدنية .

من الأمثلة الثقافية التي ظهرت في ذلك الوقت (أوائل القرن ١٩) كان المذهب الشيعي وذلك لدخول إيران في مجال التبادل الفكري ونظام الحياة في هذه التجمعات . إلا أن مراكز التجمعات الشيعية الصغيرة لم تتمكن من النمو في منطقة الخليج حيث أنهم انغلقوا على أنفسهم وأصبحوا مطمئناً ماعدا البحرين التي ظهرت بها مراكز حضرية شيعية قديمة وأخذت في النمو أصبحت تشكل معارضة قوية للسلطة اليوم .

حضارة البدو والبترول

أصبحت المجتمعات الأندلسية والعثمانية الحضرية اليوم نماذج ثقافية ضعيفة وصار دورها أداة من أدوات فهم التخطيط الحديث . واستعمال هذه المجتمعات كأداة تحليل يبدو كالبحث عن المجهول للوصول الى نظام تخطيطي متطور . أما دراسة المدن الخليجية بكل اختلافاتها تعطى إمكانية المناسبة لفهم مجتمع مملوء بالمتغيرات بسبب ظهور البترول بشكل واسع فالنقلة الحضرية كانت كبيرة من مجتمعات بدوية صغيرة داخل الصحراء الى مدن تجرى بسرعة كبيرة أدى الى تكوين مجتمعات متحضرة بشكل بدوي . وهذا يختلف عن مراحل التدرج الطويلة في المجتمعات الأندلسية والعثمانية وذلك بسبب التكامل الثقافي لمجتمعات هذه المدن واعتمادهم على مصادر حقيقية للتحضّر .

فالمجتمعات الخليجية ينقصها الوقت كي تتمكن من إدارة شؤونها بنفسها واعتمادها على نموذج حضري مستورد جاهز هو ما حدث بالفعل . فالمجتمعات الأندلسية والعثمانية قام تحضرهم على التجارة والإنتاج والاحتكاك المعرفي أما المجتمع الخليجي فهو ينمو كمجتمع استهلاكي يشترى

مدنيته بالأموال . وهذا لا يحتاج الى التدرج في مراحل التحضر ولا يحتاج الى تحرك اجتماعي أو سياسي .

وعلاقة هذه المجتمعات البدوية مع الحضر تعتمد على التصور القديم للمحليات في وسط الصحراء وقد أخذت هذه التجمعات الأشكال التالية :

- اعتبار هذه المحليات نحل محل المدينة في هذه الدول حيث تؤدي العبادات في جماعة

- الإحساس بالتجاذب والتنافر الذي يوجه مشاعر هذه المجتمعات مع المدينة فهم يتعاملون معها بشكل حذر حيث وجودهم القبلي قارب على الانقراض

- الأهمية التجارية للمدن في المعاملات التجارية . وكانت البداية أسواق بعيدة في قلب الصحراء (أسواق بوادي) تعتمد على التبادل السلعي حيث لا توجد عملات معدنية أو ورقية وتطورت الى أن صار البدوي يتعامل مع المراكز التجارية في وسط المدن وهو ما أدى الى ترتيب حياته على السكن وسط المدينة وبجوار مراكز العمل التجارية . وعليه فإن سبب سكن البدوي في المدينة كان سببا غير مباشراً .

تفكير البدوي المتخوف من التعامل مع المدينة له مبرراته فقد كانت العلاقة بين القبيلة والمدينة تعتمد على تعالي الأخيرة على الأولى سواء في سيطرة المناطق الحضرية المباشر على البوادي أو بأسيطرة غير المباشرة عن طريق المعاملات التجارية والتعليم والإمام بالطرق التي تسمح بدخول البدوي الى المدينة واستعمال الخدمات بها .

وتميزت المدن الخليجية بتوزيعها المتناسق على مسطحات دولها حتى تمتص تلك التجمعات البدوية في مجتمعات حضرية قريبة منها كي تزيل من الشخصية البدوية الخوف من مجتمع الحضر . كما تعتمد أحيانا

على المعتقدات الدينية (أهالي مكة مثلاً يسكنون بها لامتداد جذورهم بالمكان) والارتباط بالمكان فالمدقات الصحراوية التي تربط بين المراعي والمدن لازالت تستعمل حتى اليوم . إلا أن بنو الصحراء قاوموا عوامل جنب المدينة لهم في بادئ الأمر وهو ما يؤكد رفضهم لتكوين مجتمعات مدنية . مما جعل دول الخليج تنشئ لهم بعض الخدمات القبلية لديهم وهو (المجلس) الذي بدأ غريباً في بادئ الأمر على مجتمع الحضر إلا أنه ساعد على تقبل السبدو لحياة المدن كما أعطى شخصية لتلك المدن وبذلك تكون الأقليات البدوية ساهمت في إحداث توازن سياسى وثقافى واجتماعى مع الأغلبية سكان المدن .

فنداخل القديم مع الحديث في المدينة الخليجية وشباب الفراغات العامة أعطى للأفراد والجماعات الوسيلة لتقبل مجتمع الحضر حيث ربطت المدينة بينهم وساهمت شيئاً فشيئاً في تراجع تعلق البدو بالصحراء . فالمسجد والمجلس واللقاءات الجماعية بالمدن وهى أماكن اللقاء اليومية ساهمت في ربط هذه المجتمعات وحافظت على تماسكها كى تظل متمسكة بعاداتها وأحكامها القبلية .

إن الاكتساح الواضح للعمارة والتخطيط الحديثين من خلال العمارات الزجاجية أو المعدنية فى المدن الخليجية وفقدان الهدف الواضح من وراء إنشاء هذه المباني الإدارية والتعليمية أو السكنية سواء للقطاع الخاص أو العام ساهم كثيراً فى خلق مدن ممسوخة الشخصية .

كما أن تطور تكنولوجيا الاتصالات وربط هذه المجتمعات المنغلقة بالعالم المنفتح . فكثرة أجهزة الاتصال المحمولة (كومبيوتر - تليفون) والتي تعرف بأنها أشياء غريبة على تلك المجتمعات مثل الأجهزة عالية

للتكنولوجيا أو المتطورة جدا سمحت بخلق نسيج من العلاقات غير المرئية داخل المدن مثلها مثل باقي أنحاء العالم .

لذا فنحن ننتهم توسع هذه المدن كى تشمل هذه المجتمعات اللاهئة وراء التقدم الآن بل قد تكون عملية مطلوبة لإحداث التحضر . أما منطقة وسط المدينة فلم تعد الفراغ الضروري لخلق علاقات اجتماعية وثقافية حيث حلت الأجهزة محل هذه الأماكن (ساحات اللقاء) التى اختفت تماما من المدن يزيد على ذلك الاختلاف الواضح فى المستويات الفكرية مما لا يخلق لغة للحوار بينهم وتزيد من حدة الانعزال فى الحياة الاجتماعية .

هذا التحديث كان نتيجة للعائدات البترولية والتي لم يرافها مستوى متقدم لفكر أصيل نابع من الشخصية الخليجية حتى يحدث الاتزان بين التحديث والارتباط بقيم وعادات تلك المجتمعات لتكون للقاعدة الأساسية لانطلاق مجتمعات متحضرة لها الخصوصية الخليجية المفتوحة على العالم والمستقبل والمرتبطة بجذورها الأصلية .

هذه هى الرؤية التى نتخيلها لتطور تلك المجتمعات التى لازالت تحتفظ بالمضادات الصبوية اللازمة لتحضر تلك المدن نذكر من هذه المضادات مثلا عزل مساكن ابناء الخليج عن بعضها فهم غير متجاورة ولا توجد بينها حوائط مشتركة فالمبنى مستقل من جهته الأربعة ، وكذلك فصل خطى الحركة داخل تلك المنازل للسيدات عن الرجال ، ورفض الاختلاط خارج المسكن فشمسية المدينة الخليجية تعتمد على المنطقة الخاصة المنغلقة (المسكن) ثم فراغات المدينة العامة التى ساهمت فى جذب اليد من الجبال . هذين العنصرين ساهما فى خلق اللامركزية فى مدن الخليج . فالتقديرات اختفت أسواق إلقاء الشعر القديمة نتيجة الاعتماد على نمط الحياة فى

أمريكا وأوروبا والتي لا تظهر بها الأنشطة العربية الأصلية المعتمد على اللقاء والحوار المفتوح .

أصبحت العلاقات اليومية للفرد الخليجي متعارضة فخارج المنزل يتعامل مع المهاجرين من جلسات مختلفة في مباني زجاجية مغلقة معزولة عن الوسط الخليجي (حسب المستوى الاقتصادي للفرد في المدينة) . أما داخل المنزل فهو يبحث في فترات الأعياد والإجازات عن أماكن غاية في التخفي والبعد عن أنظار الناس له ولأسرته .

فالتحضر الخليجي المعتمد على الإسراف شكل ثقافة هؤلاء الناس و حدود دور الفراغ الحضري ودرجة استعمال التطور التكنولوجي في توظيف الماضي وربطه بالحاضر لتكوين شخصية المدينة الحديثة في المستقبل .

ثالثا : علاقة السكان بمركز المدينة العربية :-

فعن المجتمعات الأتليسية حيث فراغ المدينة القديمة معزول تماما عن باقي أجزاء المدينة نتيجة لاختلاف طبائع السكان الى المجتمعات العثمانية التي ركزت الاهتمام على قلب المدينة (حيث أن المناطق القديمة في المجتمعات الأتليسية توجد على أطراف المدن الحديثة أما في المجتمعات العثمانية فالمدن القديمة في قلب المدن الحديثة) مما ساعد على ربط تلك المناطق بالمدن الحديثة المحيطة بدرجات متفاوتة . أما في المدن الخليجية فلا تنطبق عليها النماذج السابقة فانفجار الفراغ الحضري للمدينة لم يترك المجال لتكوين مركز مدينة حقيقي بالرغم من البذخ الواضح في تخطيط وعمارة مراكز وساحات تلك المدن ماعدا البحرين التي تميزت بمركز مدينة قديم تلتف حوله المدينة الحديثة .

تطور مركز المدينة :

التواصل والانقطاع فى المدن الأندلسية

إن مركز المدينة بالنسبة لنا ليس المقصود به المكان وإنما المجتمع الذى يظهر به المورث الحضارى والمعمارى لذا فهى مجتمعات متكاملة تخطيطا واجتماعيا ومرتبطة بثقافة تلك المجتمعات . فى هذه المناطق تبدو مركزية التخطيط للمنطقة واضحة ولكن نتيجة لعوامل الزمن والاحتلال فقد أصاب تلك المراكز القديمة بعض التخلف ، وارتفع عدد السكان بها، بالإضافة للتعقيدات الإدارية فى التعامل مع المكان ، والمعتقدات القديمة لسكان تلك المناطق التى قد تكون جيدة فى معظمها إلا أنها منغلقة على نفسها فى بعضها الآخر ، أيضا هجرة بعض السكان الأصليين من المناطق القديمة وانبهارهم بالحديث فى المناطق الجديدة . كل ذلك أدى الى عدم وجود علاقة بين سكان المناطق القديمة التاريخية وباقى سكان المدينة الحديثة .

هذا الانفصال كان سببا لما نراه الآن فى مدن دول المغرب العربى ومع وصول الاستعمار كانت القطيعة النهائية بين النسيجين الحضريين للمدينة القديمة والحديثة . فقد كان تفكير الاحتلال لتلك المناطق بطريقة أوروبية (فرنسية) مما تسبب فى حدوث قطيعة بين القديم والحديث فيها .

فى مدينة فاس كان المحتسب له سلطات واسعة فى مجال حماية وإدارة الحياة اليومية فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية للمدينة ثم من بعده حل الباشا أو (المخزن) فى نفس الوظيفة وهنا برز دور المحتل فى توسيع هوة الخلاف بين الأول (المحتسب) لصالح الثانى (المخزن) مما شجع أحد أجزاء المدينة وهو الجزء القديم تحت إدارة المحتسب على الانفصال عن الإدارة الكلية للمدينة تحت إدارة المخزن .

الهيئات التنظيمية بالمدينة لم تدخر جهدا في وضع العراقيل أمام إدارة المناطق القديمة بها حيث تأثرت بها الحرف الإنتاجية وكل ما يخص تصريف أمور العامة . وقابلها حالات العصيان المدني والخروج على القانون من سكان المدن القديمة مما أدى الى تدهور حالة المباني في تلك المناطق . وهجرها سكانها الأصليين وحل مكانهم هجرات ريفية مما تسبب في توقف الاستمرار الحضري لتلك المناطق .

هل فرغت تماما تلك المناطق من سكانها الأصليين ؟ الواقع أن هذه المناطق وبأساليب مختلفة استمرت في تعليم الحرف المتوارثة ودمجت الهجرة الوافدة في نسيجها الحضري وساهم في ذلك حال تلك المناطق حيث تجمعوا في أماكن حسب أصولهم القروية التي وفدوا منها ومارسوا المهن الحرفية كمتعلمين بدلاً من السكان الذين تركوا المكان .

ومع تزايد الهجرات الريفية للمدن القديمة وصعوبة الامتداد لها خرج هؤلاء الريفيين لإطراف المدن الحديثة وقاموا بوضع أيديهم عليها وهذا ينطبق على كل مدن دول المغرب العربي ، وكمحاولة لحل مشاكل واضعي السيد ظهرت بعض مناطق الإسكان العاجل والإيواء بالإضافة الى ظهور مناطق عشوائية كبيرة اندمجت كلها لتشكل المدينة بشكلها الحالي .

ظهور هذه المجتمعات الريفية في المناطق الحضرية أدى الى تخلف شكل المدينة كما أن الثقافة الريفية ساهمت كثيرا في ضعف الثقافة الحضرية المتبقية في المراكز القديمة وكانت النتيجة ضعف قدرة المراكز القديمة على الاندماج مع باقي أجزاء المدينة الحديثة .

الدور الحرفي للمراكز القديمة لازال حيا لكن تقتصة الإدارة التنظيمية والاجتماعية وذلك بالرغم من الأعداد القليلة الأصلية التي ساهمت في المحافظة على الحياة داخل هذه المناطق (تونس القديمة) فالسكان

الأصليين يقدرون قيمة المكان ولكن بسبب عمليات الترميم السيئ وتدخل الاحتلال فى أمور المراكز القديمة أدى ذلك فى النهاية الى تراجع اهتمام سكان المنطقة الأصليين الباقين بمراكزهم مما فتح المجال لعمليات التحديث غير المنظم بها .

فى المغرب لازال الاهتمام بالموروث الحضرى للمنطقة قائماً من خلال الحرف لكن فى مدينة فاس حيث ثقافة المكان أصبحت فى مهب الريح بسبب ندرة عمليات الترميم وصيانة المنطقة والتي لم تعد تشغل بال الكثيرين هناك وصارت هذه المناطق متوجهة للتحديث (٩٠% من المنازل القديمة الأثرية تسكنها الآن عائلات فرنسية عائلة لكل منزل أما الباقى فتسكنه عائلات مغربية كل خمس عائلات فى منزل) وانتقل سكانها الأصليين للتعليم فى فرنسا ثم عادوا لينخرطوا فى سلك السلطة والإدارات العليا بالدولة .

بأقى سكان المدن الأندلسية (٨٥%) مجتمعات مشوهة لا تجيد التحديث بلغه البلاد الأصلية وإذا تحدثوا بها لا يستطيعوا كتابتها أو قراءتها وصارت قوانين وأعراف هذه المدن مترجمة من الأعراف والقوانين الفرنسية بالرغم من القرارات التى تصدر من هنا أو هناك .

اختلاف التركيبة السكانية داخل المناطق القديمة بالإضافة الى عمليات التحديث التى تفرضها الدولة فى كل مجالات الحياة واعتبار أن المناطق القديمة تشكل عبئاً على الهيكل التخطيطى للدولة أدى الى انهيار العديد من الأعمال ذات القيمة هناك (المسافر خانة فى مصر) وذلك تحت غطاء التحديث أو القضاء على الفقر مما أدى الى ندرة فى عمليات الترميم .

الاستمرارية التاريخية للمجتمعات العثمانية :

لعب السوق والخان دوراً مهماً فى تنشيط المناطق القديمة لمدينة الإمارة العثمانية اقتصادياً واجتماعياً وقد أدى ذلك الى تكوين شخصية للمكان

مكنها من الاحتكاك المعرفى مع الآخر ويتضح ذلك فى مدن حلب - دمشق - القاهرة - بيروت - صنعاء حيث التاريخ كان ملازماً لتطور تلك المناطق.

ففى حلب ساهم الانتشار الإشعاعى من مركز المدينة القديم والذى يحتوى على السوق والخان الى تنظيم دقيق للفراغ الحضرى اعتمد على تأكيد تلك المنطقة وقد ظهر ذلك واضحا فى الفراغات العامة الحديثة للمدينة كما أن الاعتماد على المجتمع فى تطوير المكان الى منطقة ذات قيمة حضرية ساهم كثيراً فى تنظيم عمليات الترميم والتطوير وهو عكس ما يحدث فى المدن المغربية حيث الاستغلال التجارى لكل جنبات المنطقة القديمة أدى الى تهيأ أجزاء كبيرة منها.

أما فى القاهرة فمركزها أو المدينة القديمة بها داهمتها بعض الهجرات الريفية المتقطعة مما حدا بمحمد على طرح مشروع تطوير المنطقة فى ١٨٦٣م والذى لاقى بعض الاعتراضات فلقد كان التدخل المزمع والذى أقلق المهاجرين هو ذلك التقرير الذى يقول (استجابة للضغوط الإنسانية والاقتصادية والعقارية لمدينة فى طور النمو نطرح مشروع تحديث المدينة والمجتمع بمعرفة مختصين على كفاءة علمية عالية فى أواخر القرن التاسع عشر حيث التنظيم وجعل القاهرة مدينة تنافس مدن العالم الغربى) واستمرت عمليات تحجيم المناطق القديمة وفتح المجال للتأثيرات الغربية حتى بعد قيام الثورة .

عدم استقرار المراكز القديمة أدى الى فشل الطبقات المتحصنة فى العودة إليها وتطويرها حتى على الرغم من تغير الأوضاع بعد الثورة لم يود الى إتباع سياسات حضرية مختلفة لوسط القاهرة القديمة عن محيطها . وهو إن دل على شىء إنما يدل على توجه الدولة فى التعامل مع تلك المناطق القديمة وذلك بالاعتماد على التقارير التى تصدرها الهيئات

الاجتماعية والثقافية والسياسية بالدولة كما تأخذ في اعتبارها التحولات الاجتماعية لسكان تلك المناطق .

أما بالنسبة لبيروت فهي حالة خاصة فحتى 1975م كان تطور مركز المدينة القديم يماثل ما حدث في حلب ودمشق سواء في تطور هذه المراكز ودور الاسواق التجارية في ذلك وحتى أسلوب تنخل التجار الأغنياء في عملية صيانة المدينة القديمة كان مطابقاً لما يحدث في حلب . لكن حالة التشعب التي وصلت اليها هذه المناطق وصعوبة التعامل مع الحديث والحرب الأهلية أدت الى حدوث انهيار في تلك المناطق . وأدى ذلك الى خروج العديد من سكان المراكز القديمة الذين لم يندمجوا مع المجتمع المدني بسبب تخلف أساليب تعاملهم معه . حتى أن دور الدولة الضعيف ساهم في عدم حدوث التوازن والتقسيم الاجتماعي للسلطة وصارت الغلبة للكثرة العددية وأصبح ذلك أحد أسباب الفشل في الاندماج الحضري لتلك المناطق مع باقى أجزاء المدينة الحديثة .

فى مراكز مدينتى عدن وصنعاء القديمتين وانفتاحهم الحديث على المدينة نموذج على تفرد تلك المجموعات وقدرتها على الاندماج . ففى صنعاء تبكلم المدينة القديمة فى هياتها الاجتماعية والقانونية كما أن شدة الترابط بين العشائر والقبائل فى تلك المراكز خلق نوع من العلاقة بين السريف والبدو والحضر بل وأصبح للريف دوراً قويا يمارسه فى المدينة اليمينية الحديثة . كما أن عملية التحديث المعمارى لبعض التجمعات فى المدينة القديمة وامتداد مركزها حتى الكورنيش خلق فراغ للنزحه حديثاً كما ساعد على خلق بيئة مناسبة للربط بين القديم والجديد بطريقة عملية كما ظهر بوضوح خطورة حركة السيارات بالمكان لذا تعد صنعاء نموذجاً

لامتداد المركز القديم الى الحديث وتداخله معه وقد ظهر ذلك أيضا في البحرين حيث العلاقة بين المركز القديم والمدينة الحديثة كانت ناجحة جداً .

ج- المراكز المهجورة في المدن الخليجية :

إن اختلاط الأجناس المهاجرة في مدن ليست لها صبغة ثقافية وزيادة عددهم مقارنة بأعداد أهل البلد فهم يعيشون في وحدات سكنية لا يعيش فيها الخليجيون أنفسهم . هذه العمالة تنتظر دائما عطلة نهاية الأسبوع للتجمع في مراكز تلك المدن . إنها عمالة من جميع أنحاء العالم ومعظمها من آسيا سواء كانوا موظفين أو ربات بيوت فهم عادة يتجمعون هناك لتمضية وقت الفراغ والوحدة التي تحيط بهم في بلاد المهجر .

أما أبناء البلد من أصول خليجية فمفهوم المدينة بالنسبة لهم هو كل ما يتم تصميمه في أمريكا وإنجلترا سواء عمارة أو تخطيط وهي غالبا تصميمات لا علاقة لها بنمط وأسلوب حياة البدو الرحل والذين بسب البترول وجدوا أنفسهم سياح في جميع أنحاء العالم . فالمراكز الإدارية ومراكز رجال الأعمال والخدمات محدودة جدا ولا تفي بالوضع الاقتصادي الجديد ولا تشبع الاستهلاك المرتفع لفرد لدية القدرة الشرائية الكافية مع الخواء الثقافي الداخلي .

المدن التي ظهرت في ظروف كهذه ليست لها شخصية أو طابع عام وهذا ليس بسبب أنها حديثة وعلى النمط الأنجلو أمريكي ولكن لأنها تخلو من المراكز التاريخية وشبه انعدام المساحات العامة ذات الدور الاجتماعي في الالتقاء وهذا لا يمكن مقايضته بتقديم مراكز مباني تجارية مكيفة هربا من الحرارة المرتفعة .

فالتصميم العمراني وعمارة مدن الخليج تقتصر الى الشخصية أو الطابع وهذا واضح جدا في تلك المدن أكثر من وضوحه في الامتدادات

الجديدة في مدن الأندلس والمدن العثمانية . فالشكل الإسلامي لا يظهر إلا في مسجد هنا أو هناك له مئذنة مكررة الشكل داخل المدينة . إنها الوهابية في أعظم صورها التي تظهر في مدن الخليج ، فارتداد المساجد خلق علاقة تجاور وتعارف بين المصلين وأحياناً يكون التجاور في العمل هو السبب في هذا التقارب . إلا أن العلاقات التي تنشأ بين الناس بسبب الصلاة أو العمل لا تقارن بالعلاقات التي تنشأ في مدينة صنعاء مثلاً حيث البلدة القديمة (تاريخ) والمراكز الحيوية الممثلة بالسكان والصلاة تؤدي بنفس الطريقة كما في مدن الخليج عن طريق الإغلاق الكامل للمحلات والأعمال اليومية مستمرة إلا أنه لا يوجد تشابه بين مدينة صنعاء ومدن الخليج فهناك طابع ومجتمع حيوي فرض هيئته على المدينة . شكل (1)

فقطيع فراغات المراكز التجارية عن طريق افتراض الممرات في أماكن العمل وفي كل مكان تقريباً لأداء الصلاة دون الذهاب إلى المساجد يدل على قصر النظر وعدم التجاوب الديني الكافي وذلك بالرغم من وجود جماعات الأمر بالمعروف المتشددة التي لها سطوتها في تلك المدن . أننا نتساءل أين دور مجتمع العمل والدولة في تلك المجتمعات ؟ . إن إقحام التشدد أو التطرف في الفراغ الحضري للمدينة سواء في المباني الإدارية أو التجارية أدى إلى ظهور المدن الخليجية .

على هذا الشكل الذي يحتوي على العديد من المتضادات الغير متفقة نهائياً . فمنظر المدن هناك ينم عن خوف كبير غير ظاهر ولا يستطيع أن يبوح به السكان .

إن المعالجات العمرانية للمدن الخليجية تظهر أيضاً المتضادات التي تظهر في وسط سكانها فقد ظهرت هذه المدن عبارة عن فتحات من الزجاج في حوائط صماء على الطريقة الأمريكية مقابل تجمعات خيام فقيرة في قلب

الصحراء تربط بينها مجموعة من المدقات وهذا هو نمط معظم المدن الخليجية .

إن المجتمعات العثمانية لازالت بخير فنحن لا ننتج فيها إلا الفراغات التي نحتاجها النافعة فكل فراغ له وظيفته التي يؤديها لذا فإن هذه المجتمعات لا تخاف من التواصل مع الأخرى (أوروبا - أمريكا) وذلك عكس المدن الأندلسية والخليجية التي فرض عليها الآخر طابعه .

نتائج البحث والتوصيات :

إن الأهمية التي أحاطت بالمدن العربية من خلال تطورها التاريخي - المعماري - التخطيطي - الاقتصادي - الاجتماعي الحديث عطت على الانشغال بتحديد دور للثقافة التي عرفت تلك المدن منذ القرن التاسع عشر . إلا أن مراحل رد الفعل في المدينة وحسب الأساليب المختلفة لقياس ردات الفعل لكل مدينة على حده توضح لنا عن قرب المحاور التي تؤكد استمرارية التكوينات القديمة للمجتمعات مع بعض التفاوتات البسيطة . إلا أن ضعف نموذج التخصر كمرجع ثقافي والذي يبدوا أحيانا متجانساً أو غير متجانس يظهر أحيانا متوافقا مع التغيرات دفعة واحدة وأحيانا لا يتوافق معها لضعف الجين الحامل لثقافة المنطقة القديمة في الوسط الحضري . إنها المدنية الحديثة التي نسجت اليوم شبكة مديول ثقافية جديدة للتطور المستقبلي للمدن . هذه التغيرات العميقة ظهرت في وسط أزمة تخطيط تميزت بالتراجع الثقافي للطبقات المتوسطة في المجتمع أمام ثقافة الريف الغير منظمة والمتقلة الى مجتمع الحضر عن طريق الهجرات المتوالية .

هذا للتطور الاجتماعي للمدينة اشتمل على اختلافات كثيرة . لأنه إذا كانت هذه الطبقة المتوسطة لازالت تمثل الدليل الثقافي للتخصر فإن طبقة المديين الجدد (الريفيين المتحضرين) هم الذين يمسون بزمام السلطة

الحقيقية كما أنهم يملكون وسائل التأثير فى صنع القرار المؤثر فى تطور وتركيب مجتمع المدينة الحالى . هذه التغيرات العميقة لا تشكل فقط أزمة فى شخصية المدينة العربية اليوم بل أثبت أن تطور المدينة وسكانها لا يمكنها الانفصال عن مراحل تطور مجتمع الدولة بصفة عامة وتأثيرها على محتوى المدينة . وفى محاولة لإثبات ذلك من خلال العلوم الإنسانية يمكننا تحليل العنف فى الجزائر بأنه يرجع الى أزمة تخطيط حضرى عميقة يعيشها المجتمع الجزائرى خلال العشرة سنوات الأخيرة . فإدارة المدن دون إعطاء الأهمية للحالة التى يعيشها الناس والتركيب السياسية للسكان وأشكال التنظيم الحضرى ومشاكل الإمداد بالكهرباء والمياه والطرق كل ذلك جاء ليقضى على حقوق تلك الفئة ويضرب حولها طوق من التخلف .

إن سحب السلطة وعدم الاشتراك فى الإدارة وفرض تخطيط معين هى الأسباب التى تؤدى الى الانقلاب الكامل والتفكك الدرامى لمجتمع المدينة . كما أن العائدات البترولية والتى استخدمت كطموحات خادعة فى خلق نموذج للتطور الإيجابى وفى خط سير محدد ومفروض على المجتمع أدى الى تفاقم وتزايد حده التعارض الاجتماعى والاقتصادى والسياسى لتلك المدن.

فعملية التحديث التخطيطى كانت مقطعة الأوصال خاصة فى المدن التى ظهر بها النموذج الاستثمارى بشكل واضح مثل دول المغرب العربى وكذلك فى المدن التى أدخلت عليها تجارب تخطيطه جديدة بوحى أمريكى أو إنجليزى كما هو الحال فى مدن الخليج فقد دخلت بعض التعديلات على النسيج الحضرى للمدن الأندلسية والخليجية لتطويزه إلا أن الكثير منها كان بشكل عفوى وغير عقلانى مما أثر على الأسس التى قامت عليها المدن

القديمية وغسرت من الترابط الاجتماعي للطبقة المتحضرة والتي طفح بها الكيل الثقافي المفروض قسراً على المدينة الحديثة هناك .

فى الأنواع السلائل للمدن العربية كانت حالة المجتمعات متأثرة بتكوين وتأثير المجتمع . ففى المجتمعات الأندلسية ظهرت فكرة (دولة الشعب) وهى فكرة مستوردة من عهود الاستعمار وهى النقطة الوحيدة التى استقادت منها تلك المجتمعات قليلة التضر من فرنسا . أما فى المجتمعات العثمانية فإنها تتميز بخاصية الازدواجية واستعدادها لتقبل أفكار أخرى وهضمها وإفراز صفات جديدة خاصة بها وذلك فى دول لها حساسيتها الهشة فى المشاركات القومية مروراً بالثقافة السياسية المتأثرة بالعلاقة بين مجموعة من الأفكار المشوشة الى علاقة شبه جيدة بين المجتمع والإدارة الحضرية له . أما فى المجتمعات الخليجية فإن تغير الأوضاع مقارنة بالتركيبه الاجتماعية لتلك الدول أدى الى هذه الهشاشة الاجتماعية وانعدام التطور الذاتى خاصة فى مجتمعات البدو والتي لا تعرف لنفسها جنسية محددة فى صحراء الجزيرة سوى تلال الأموال البترولية .

إن الاضطراب وفقدان الهوية والمرجع الثقافى الذى يعيشه سكان بعض المدن العربية أدى الى صعوبة تكوين شخصية محددة لتلك المدن . وهذا يتضح من الأزمات التخطيطية التى تظهر فى كل مجتمع من المجتمعات الثلاثة السابق نكرها . مما يؤدى الى حدوث قطيعة بين السكان والمدينة تأخذ شكلاً درامياً خاصة فى المشاكل التى تحتاج الى حلول محددة للمجتمع هذا بالإضافة الى سلطات تكاد تلامس من بعيد للمشاكل الحضرية القائمة .

هل ينطبق ذلك على كل الدول العربية ؟ لقد أشرنا الى بيروت وما حدث بها خلال فترات الحرب الأهلية ولكن هل تنضم إليها إيران أيام الشاة

أو أفغانستان أيام الحكم الشيوعي حيث الاختلاف العقائدي في التحضر هو الذى أوصل البلدين الى الصورة التى عليها الآن . إن التحضر كمستوى لا يصلح أن يكون وسيلة تحليل للوضع التخطيطي القائم خاصة عند استقرار الاختلافات التى تعيشها المدن العربية حيث أنه يمثل وجهه نظر أعلا من المستوى الذى وصلت إليه هذه المدن . وكما يحدث فى أى مجتمع يطمح الى تكوين أشكال جديدة يجب أن يمر بمراحل تحضر وتطوير للإنماج مع المدينة أو الخروج عن إطارها . أليس من الأجدر فهم الأسس الثقافية للمجتمعات القديمة ومراحل تطورها لتحديد الجين الثقافي الذى يضمن استمرار تحضر المدينة والتعرف على أسس التعامل مع السلطة لنضمن إدارة حضرية سليمة تتحكم فى تطور تلك المجتمعات ؟ إن الساحات العامة أصبحت ضرورة لإدارة أزمات المجتمع المدنى للعبور به الى التحضر فهل تكون هى حلقة الوصل مع المجتمعات القديمة لتشكل حضر القرن القادم ؟

علينا إذا لم نخش تدهور المجتمعات القديمة أن نضعها فى منظومة تطور تشرف عليها سلطة تمنح سكان تلك المجتمعات الأصليين الاستقلال الكامل فى تطور مجتمعاتهم والتى يمكن إدارتها من خلال الهيئات التخطيطية أو التى يطلق عليها الآن المجتمع المدنى . ألا يمكننا اليوم أن نحافظ على للديموقراطية المحلية الموروثة التى تضمن هامش بسيط من المشاركة الشعبية للحضر فى إدارة المناطق التى يعيشون بها . وهناك دنون من الماضى أوضح مراحل اندماج سكان تلك المناطق بمجتمعاتهم فى الحياة العملية وهو ظهور الجمعيات الأهلية لتنظيم العلاقة بين المجتمعات المتحضرة القديمة والجماعات الريفية المهاجرة الى المدينة لإنماجهم فى مجتمعاتهم الجديدة . هذا التصرف ساعد على تلافى الوقوع فى مشاكل بين الحضر والريفيين مما قد يتسبب فى استهلاك المدينة القديمة . وهو أسلوب ساعد فى حل معضلة واجهت المدينة القديمة بأسلوب لا يسمح للريفيين

بتطويرها على النمط الريفي الذي جاءوا منه إنما هي عملية استيعاب
لحضارة هؤلاء الناس .

يمكننا أن نخلص هنا إلى أن محاولة الوصول بالتقديم إلى الحديث
يجب أن تمر بتسلسل طبيعي متدرج الذي يجعل من المدينة والمجتمع والثقافة
شركاء في تنظيم حياة السكان وذلك من خلال الجين الذي يربط بين التنظيم
الحضري وصورتها الأثرية . وقد قدمت لنا المدينة العربية في ذلك المجال
تجربة رائدة وذلك من خلال تحمل مسئولية إرشاد ونقد هذا الموروث
الحضاري الذي يحمل في طياته النظرة إلى تطور حقيقى للمدينة والمجتمع
العربي .

المراجع والنشرات :

- د . أشرف كامل بطرس : الثقافة والعمارة منهج لرصد العلاقة التبادلية - رسالة ماجستير هندسة القاهرة ١٩٩٢م .
- الياس فرج : فى الثقافة والحضارة - دار الشؤون الثقافية العامة القاهرة ١٩٨٧م
- أدولف أرمان : ديانة مصر القديمة - الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٧م .
- جمال حمدان : شخصية مصر فى عبقرية المكان - كتاب الهلال ١٩٩٣م .
- سمير عبده : الإنسان العربى والعلم - الطبعة الأولى - دار الأفاق الجديدة - بيروت ١٩٨١م .
- سيد كريم : لغز الحضارة المصرية - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٦م .
- كمال نسوقى : الاجتماع ودراسة المجتمع - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الثانية ١٩٧٦م .

- F.Damette:La question urbaine dans le monde arabe.(espace et societe) n.65-1999 p137-144.
- C.Gertz;Reading the signs in an urban sprawl (toutes direction) institute for advanced study, princeton 1989.
- R.Ilbert:La ville islamique ,realite et abstraction .(cahiers de la recherche architectural) n.10-11 paris 1982.
- M.Lussault:La citadinité pour un approche problematique (table rond-urbama-TOURS)1996.
- J.Remy:Retour aux quartiers anciens (recherches sociologiques) n.3 p.287-319 paris 1983.
- R.Sennett ;The conscience of the eye -the design and social life of cities (new york 1992) 314 pages.
- J.F.Trion ;les villes du monde arabe a la recherche d'un model (societe, geographie)1990 p 53-62.